ماذا يجب على المسلمين

تجاه القرآن

تأليف

اسرار احمد

المؤسس للجنة خدام القرآن المركزية لاهور

تعريب

الأستاذ صهيب حسن السلفى

لجنة خدام القرآن المركزية
١٢ــشارع افغانى ، سمن آباد، لاهور

كل من يريد أن يطبع هذا الكتاب فله رخصة

طبع فى مطبعة المكتبة العلمية ١٥- شارع مدرسة البنات - لاهور

بسم الله الرحمن الرحيم

ماذا يجب على المسلمين تجاه القرآن

يجب على كل مسلم حسب مقدرتـه وصلاحيتـه خمسة حقوق تجاه القرآن وإليكم بيانها بعبارة واضحـة خالية عن أى غموض أو تعقيد يعقبها توضيح كل حق مع شرح واف لـه فى ضوء القرآن نفسه .

أولاً : الايمان بالقرآن المجيد

ثانيـاً : قراءتـه

ثالثاً : فهمه

رابعاً : العمل بـه

خامساً : تبليغـه إلى الآخرين .

الحق الاول

الايمان بالقرآن

وله وجهان ، إقرار باللسان وهو شرط ضروری الدخول فی حظيرة الاسلام ، وتصديق بالقلب وهو يلزم الايمان الحقيقی .

المراد بالايمان به هو أن يقر المرء بأنه كلام الله العزيز المنزل علي رسوله محمد ﷺ خاتم النبيين بواسطة جبرائيل عليه السلام ويدخل المرء فی حظيرة الاسلام بهذا الاقرار ولكنه لا يحظى بالايمان الحقيقی إلا إذا تيقن بهذه المعتقدات بقلبه فاذا حصل له ذلك زادت لديه عظمة القرآن وازداد هو بنفسه تعظيماً له وتكريماً فكأن الايمان به يلزمه التعظيم والاكرام له .

إن أول من آمن به هو الرسول ﷺ بنفسه وصحابته المكرمون كما قال عز و جل: "آمن الرسول بما أنزل إليه من ربه والمؤمنون" البقرة .

ولما كان هذا الايمان صدقه القلب وحالفه الاذعان واليقين وقع فی قلوبهم موقع الاجلال والتكريم وحل فيها محل الحب والوله به فكان النبی ﷺ ينتظر الوحی ويتشوق إلى نزوله فاذا نزل عليه

أستعد اقراءته وحفظه وهو وله به إلى حد بعيد حتى نصحه الله تعالى بالامتناع عن المبالغة فيها بقوله ''ولا تعجل بالقرآن'' (طه) و''لاتحرك به لسانك لتعجل به'' (القيامة) .

ولما انقطع الوحى فى أول نزوله شق على الرسول انقطاعه حتى أنه كان يفكر بعض الأحيان فى الايقاع بنفسه عن الجبل وكان يقضى أكثر الليل وهو يقرأ القرآن فى الصلاة حتى تتورم قدماه وكم من صحابى تابعه على قراءته نصف الليل أو ثلثه أو ثلثيه كما شهد به القرآن ويأتى تفصيله فيما بعد وكان يسمع القرآن — وهو الذى أنزل عليه — من الصحابة بالحاح منه وقد تدمع عيناه وهو يستمع إليه ، ولم تكن صلة النبى ﷺ وصحابته بالقرآن و ولههم به إلى هذا الحد إلا لأنهم تيقنوا بنزوله من الله عزوجل حق اليقين ، أما نحن فعلى نقيض ذلك نقر بأنه من الله ونشكره على أنه جعلنا من المسلمين المؤمنين بكلامه ولكنه لم يحصل لدينا — إلا من شاء الله — هذا اليقين الكامل بكونه كلام الله مما أدى إلى بعدنا عنه وانصرافنا عن تلاوته . . . . . . قد لا يعجبكم هذا القول إلا اننى أرجو كل واحد منا أن يخلو بنفسه ويفكر جدياً فيجد أنها خالية عن هذا اليقين وقد حل محله الريب والشك كما شهد به القرآن «وإن الذين أورثوا الكتاب من بعدهم لفى شك منه مريب» (الشورى) وهذا الذى جعلنا ننصرف عن قراءته والتفكير فى آياته وتكوين شخصياتنا حسب أوامره ومنهياته ، كل هذا وذاك صادر

عن نقص فى الايمان واليقين ومن العسير أن ينفعنا أى موعظة أو تذكير مادامت هذه العلة كامنة فى القلوب محيطة بها من كل جانب . . . .

> «إن واجبنا الأول لذلك هو أن نتحقق من أنفسا متسائلين ، هل نعتقد بأن القرآن هو كتاب سماوى مقدس ليس له أى رابط بالحياة ومسائلها العديدة بناء على عقيدة ورثناها أبا عن جد أو نعتقد بأنه كلام الله الذى أنزل ليهتدى به الناس ويقتدوا بهديه فى حياتهم»

فاذا كان الثانى فهو المراد وأما إذا كان الأول — وعليه أكثرنا كما أظن - فعلينا أن نجبر هذا النقص فى الايمان لأنه لا يمكن الوفاء بحقوق القرآن إلا إذا حصلنا على هذا الايمان .

وقد يتساءل سائل «فما هو الطريق العملى لجبر هذا النقص ؟ والجواب أن أسهل طريق للحصول على الايمان وأعظمه وقعاً فى القلوب هو صحبة الأخيار الصالحين أصحاب الايمان واليقين كما تدل عليه أسوة الصحابة بأنفسهم فقد نالوا حظاً وافراً من هذا الايمان بصحبة النبى العظيم قد لا يتصور مثله فى هذا الزمان — أما بعد وفاة الرسول ﷺ فان العامة من الناس لا يزالون يحتاجون إلى صحبة أولئك الخاصة الذين غمر قلوبهم الايمان وداخلها إلى شغافها ، وأما الخاصة فانهم يزدادون إيماناً وبصيرة بصحبة القرآن نفسه وبسيرة الرسول

العظيم وسير أصحابه رضوان الله عليهم أجمعين ومن أراد أن يزداد إيماناً بالقرآن فما عليه إلا أن يلزم القرآن نفسه(١) .

ولم يكن الايمان - كما سيأتى تفصيله - ليؤتى به من الخارج ، إنما مصدره هو نفس الايمان بعينه كما أن قلبه هو تلك المرآة الصافية التى تنعكس فيها حقائق الكون بأجمعها المعبر عنها بالايمان بعبارة أخرى ، وإنما تتغير تلك المرآة ويتضاءل ضوءها إما بسبب المجتمع الفاسد المحيط بالانسان من كل جانب والتربية الفاسدة وإما بالأعمال السيئة(٢)».

إن كلام الله نزل «تبصرة وذكرى لكل عبد منيب» لجلاء هذه المرآة الكامنة فى القلوب فمن قرأه وتدبر فى معانيه طلباً عن الحق بنية صادقة ارتفعت عنه الحجب وتلألأ باطنه بالنور الوهاج من هذا الايمان ، هكذا يتحصل المرء على هذا النور لأول مرة وكلما تغبرت هذه المرآة فما عليه إلا أن ينظفها بقراءة القرآن نفسه كما أوصى به الرسول ﷺ فى رواية عن عبدالله بن عمر ، «إن هذه القلوب تصدأ كما يصدأ الحديد إذا أصابه الماء ، قيل يا رسول الله ما جلاؤها ؟

---

(١) كما قال شاعر الاردية الشهير المغفور له مولانا ظفر على خان : ''لم يكن الايمان ليقتنى من دكان الفلاسفة بل إنما يعثر عليه القارى بعد البحث والتفتيش فى أجزاء القرآن''.

(٢) كما قال الله تعالى : ''كلا بل ران على قلوبهم ما كانوا يكسبون''.
(المطففين)
وكما قال النبى ﷺ ''كل مولود يولد على الفطرة فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه'' (الحديث) .

قال كثرة ذكر الموت و تلاوة القرآن ، رواه البيهقي .

عصارة القول بأنه لا يمكن تغيير مجرى الحياة إذا بقي المرء يعتقد في القرآن ما ورثه كابراً عن كابر بل عليه — إذا أراد الوفاء بحقوقه— أن يحصل على يقين كامل على أنه كتاب الله المنزل لهداية البشر أجمعين ، فمن حصل على هذا اليقين قويت صلته بالقرآن لأن من شعر بأنه كلام ذلك الاله العظيم الذى لا تدركه الأبصار ولا يمكن أن يتصوره أحد—والعجز عن إدراكه هو الادراك بنفسه كما قال الرسول ﷺ⁽٣⁾— حدثت له ثورة عارمة فى أفكاره ومخيلاته وعرف قدر هذه النعمة الجليلة التى لا تدانيه نعمة أخرى تحت أديم السماء⁽٤⁾ .

«وعندئذ تتغذى أرواحنا بتلاوته وتتنور قلوبنا بالتدبر فى آياته وكلما قرأناه ازددنا رغبة فى قراءته وكلما صرفنا جهودنا فى فهم معانيه وسبر غموضه وأسراره أدركنا بأننا ما استوفينا حقه وما قمنا بالواجب حق قيامه» .

---

(٣) ويقول سيدنا أبوبكر الصديق : ''العجز عن درك الذات ادراك'' يزيد عليه سيدنا على بقوله : ''والبحث عن كنه الذات اشتراك''.

(٤) كما ورد عن رسول الله ﷺ فى حديث بأن من أعطى القرآن ثم ظن بأن هناك نعمة أعظم منه أعطيها رجل آخر فما عرف القرآن حق معرفته''.

الحق الثانى

التلاوة والترتيل

وردت كلمة القراءة والتلاوة فى القرآن المجيد للتعبير عن معنى واحد إلا أن كلمة التلاوة كانها اصطلاح قرآنى لقراءة كتاب الله بعاطفة من الاكرام والتعظيم لدى القارىء معتقداً بكونه كتاباً سماوياً جاعلا نفسه فى أحضانه فكراً وذهناً قاصدا الاتباع والاذعان، وقد وردت هذه الكلمة للتعبير عن القراءة خاصة فى المصاحف السماوية ، أما كلمة القراءة فهى تعم قراءة أى شىء كما أن من معانى «التلاوة» الاتباع والاعقاب وأما القراءة فلاتدل على أكثر من جمع وضم للمقروء .

واستعملت كلمة القراءة بادىء ذى بدء — حتى فى كلام الناس — فى تعلم القرآن وعلومه فمن تعلمه سمى قارئاً ثم اختصت هذه الكلمة أخيراً بمن قرأ القرآن مراعياً علم التجويد وقواعده محافظاً على أداء الحروف حسب مخارجها كما أنه عرفت كلمة التلاوة بقراءة القرآن بشىء من الانابة والخضوع بقصد حصول البركة ونيل النصيحة .

إن تلاوة القرآن هى افضل طريق واعظمه تأثيراً فى الحفاظ على الايمان وسقى غراسه كما انها عبادة من أعظم أنواع العبادات .

لم يكن القرآن ليفهم مرة فلا يعاد إليه اخرى بل إنما هو بمنزلة الغذاء للروح وكما ان الجسم الحيوانى لا يستغنى فى يوم من الأيام عن غذائه الذى مصدره هى الأرض فكذلك الروح التى معينها السماء لا تستغنى عن الاستمداد بهذا الغذاء الروحى من الكلام السماوى الحكيم» .

ولم يكن الرسول فى حاجة إلى تلاوة القرآن آناء النهار واطرافاً من الليل لو كان القرآن من الكتب التى إذا فهمت مرة ما اعيد إليها أبداً ولكنه امر بتلاوته وخاصة فى الدور الأول من النبوة وترتيله بين يدى الله تعالى وكلما حزبه أمر او تهاجمت عليه الافكار والأحزان امر بالالتجاء إلى القرآن نفسه كما قال تعالى : «واتل ما اوحى إليك من كتاب ربك لا مبدل لكلماته ولن تجد من دونه ملتحداً» (الكهف) «واتل ما أوحى إليك من الكتاب واقم الصلاة» (العنكبوت) .

تدل على هذه الآيات على ضرورة تلاوة القرآن بدون انقطاع فهى غذاء المؤمن وسلاحه ضد المشاكل والكوارث وآلته لتعهد غراس الايمان وقد خص القرآن بالذكر أولئك الذين يعتنون بقراءته فقال: «الذين آتيناهم الكتاب يتلونه حق تلاوته» (البقرة) وفتمنا الله لتلاوته حق التلاوة ولكن ما هو حق التلاوة وماهى الشروط للوفاء به ؟ إليكم بيانها بالاختصار .

١- التجويد

أى معرفة حروف القرآن ومخارجها ومعرفة رموزه وأوقافه ولا تصح التلاوة إلا بمعرفة هذه الأمور وهكذا كانت الحال قبل ثلاثين سنة ونيف فما من طفل يبلغ سن التمييز إلا وبدأ يتعلم حروف القرآن وأداءها حسب مخارجها فى المساجد ومن الأسف الشديد أن كثيراً من الكهول والعجائز بله الجيل الجديد من الشبان والشابات فى عصرنا هذا يعجزون عن قراءة القرآن نفسها مما يرجع سببه إلى تدهور حالة التعليم فى المكاتب والمساجد وانتشار المدارس العصرية من رياض الأطفال إلى غير ذلك وأرجو منهم أن يتنبهوا الى هذا النقصان العظيم ويسعوا إلى جبره بتعلم قراءته على الوجه الصحيح ولو بلغوا كما يجب عليهم أن يبدأوا بتعليم أولادهم الحروف العربية وأداءها بالنطق الصحيح لتسهل عليهم قراءة القرآن ، وقد لا تمدح المبالغة فى هذا الأمر إلا أنه لا مناص لكل من آمن بالله ورسوله وأعطى حظاً من العلم من أن يحافظ على قراءة القرآن على الوجه الذى مر بيانه .

٢- الوظيفة اليومية

الشيء الثانى المهم للوفاء بحق التلاوة هو أن يلتزم الرجل بنصاب معلوم من القراءة يومياً ويختلف قدره حسب اختلاف الناس وأحوالهم فأكثرها قراءة عشرة أجزاء يومياً أو ختم القرآن فى ثلاثة أيام كما نص عليه الرسول ﷺ وأقله — وليس دونه شيء حسب ما تعارف عليه الناس

والتزموا به فى حياتهم فيما مضى من الزمن قريباً — هو تلاوة جزء يومياً بحيث يختم القرآن فى شهر واحد وأوسطه ما كان عليه أكثر الصحابة كما أوصى به الرسول ﷺ عبدالله بن عمر رضى الله عنه وهو ختمه فى سبعة أيام ولهذا عرفت سبعة أحزاب للقرآن منذ زمن الصحابة بحيث تشمل الأحزاب الستة الأولى على ثلاث وخمس وسبع وتسع وإحدى عشرة من السور حسب الترتيب والحزب السابع المعروف بالمفصل على الباقى من القرآن فلا يتجاوز الحزب الواحد أربعة أجزاء ومن السهل تلاوتها فى ساعتين وهما أقل من عشر الليل والنهار بكاملهما، هذا هو النصاب للقراءة ويجب على كل من رزق حب الدين ووجد رغبة لديه فى أداء حقه سواء كان من العامة والخاصة فكلاهما فى احتياج شديد إلى تغذية أرواحهم وتقويتها فالعامة يخرج منها بالموعظة والذكر وأما الخاصة فيهتدون بهديه ويستنيرون بضوئه حسب مداركهم ونضوج عقولهم⁽٥⁾ ولا يستغنى عن قراءته أحد ولا أولئك المفكرون فى آياته الخاضون فى عمق محيطه الواقفون لدى مشكلاته أمداً طويلا ، فانهم إلى تلاوته أشد احتياجاً من غيرهم لأنها تحل لهم المشاكل وتفتح لهم الأبواب التى استعصى عليهم حلها سابقاً .

---

(٥) من الواقع أن كثيراً من أهل الفكر والرأى تجابههم عقد محكمة لا يجدون الى حلها أي سبيل قد يهتدون نجاءة الى حلها بأيسر طريق خلال تلاوة القرآن بينما مروا على نفس الآيات قبل ذلك مرور الكرام الا أنهم يبلغوا الى أي اشاره لخلو أذهانهم من تلك العقد سابقاً .

٣- اللحن الحسن

بما أن الصوت الحسن مرغوب لدى كل شخص يجب على القارئ تلاوة القرآن بما استطاع من لحن طيب وصوت حسن وبما أن الاسلام دين الفطرة فما كان ليقضى على دواعى الفطرة مثل الاستماع إلى صوت حسن والنظر إلى أشياء حسنة من أصلها ، وإنما يصرفها إلى طريقها الصحيح فالنظر إلى كتابة المصحف الأنيقة والاستماع إلى تلاوة القرآن بالألحان الطيبة مما يكفل للمرء تحقيق هذه الدواعى على الوجه الصحيح ولذا قال النبي ﷺ : «زينوا القرآن بأصواتكم» كما نبه على التقصير فى هذا الأمر بقوله : «من لم يتغن بالقرآن فليس منا» (أبو داؤد) ورغب فيه بقوله : «ما أذن الله لشيء أذنه لحسن القرآن بالقرآن» وكم حدث أن الرسول يقف فى الطريق ليستمع إلى صحابي يقرأ القرآن باللحن الجميل وكان يسر به ويدعو له كما كان يطلب بعض الاحيان من بعض الصحابة ليقرأ عليه القرآن مثل ماورد عن عبد الله بن مسعود فقد طلب منه ذلك فقال : «يا رسول الله أقرأ عليك وعليك أنزل ؟ فقال ﷺ : «نعم» فلما قرأ عليه دمعت عيناه وقد سمع مرة أبا موسى الأشعرى يقرأ القرآن فقال له «يا أبا موسى لقد أوتيت مزماراً من مزامير آل داؤد».

وأما إذا جعلت القراءة حرفة داخلتها الصناعة والرياء فانما تصير من المهلكات ولكنه يجب على كل حال للمرء أن يروى داعية حسن

الصوت المودعة عنده بالاستماع إلى قراءة حسنة كما عليه أن يتلو القرآن بما استطاع من صوت حسن .

٤- الآداب الظاهرة والباطنة

وهناك آداب ظاهرة وباطنة لأداء حق التلاوة أيضاً ، منها كون المرء على وضوء وعلى جهة القبلة عند التلاوة مبتدئاً بالتعوذ ومنها أن يكون قلبه عامراً بالايمان معترفاً بعظمة القرآن وصاحبه وقد خشيت جوارحه وخضعت بين يدى الله تعالى ما يريد إلا الهداية ولا يرجو من وراء ذلك إلا رضاه وقد قويت عزيمته على تغيير حسب مقتضيات القرآن ، لا يقصر فى التدبر فى معانيه والتفكر فى عظيم آياته ولا يقصد من ورائها الاستناد إلى آراء نفسه ومعتقداته ، وبهذه الكيفية تتحقق القراءة فكأن الرجل يتبع نفسه هذا الكتاب ويجعلها فى صحبته مما تدل عليه كلمة «التلاوة» كما مر بيانه .

٥- الترتيل

ومن أعظم صور التلاوة وأجلها ترتيل ماتيسر من القرآن بين يدى الله تعالى فى غاية من السكينة والطمأنينة فى الصلوات وخاصة فى صلاة التهجد مع مراعاة الشروط التى سبق بيانها مما لها تأثير عظيم فى القلوب وهذا ما فعله الرسول ﷺ وبه أمر فى بداية عهد النبوة «يا أيها المزمل قم الليل إلا قليلا ، نصفه أو انقص منه قليلا ، أو زد عليه ورتل القرآن ترتيلا» (المزمل) .

وهناك شبه قوى بين ترتيل القرآن أى قراءته بسكينة وتمهل وبين كيفية نزوله فانه لم ينزل على الرسول جملة واحدة بل إنما نزل نجما ولما انتقد الكفار على الرسول ﷺ كونه لم ينزل جملة واحدة رد عليهم الله تعالى مخاطباً الرسول «كذلك لنثبت به فؤادك ورتلناه ترتيلا» (الفرقان) .

يعلم من ذلك أن الترتيل هو أصلح طريق وأشده تأثيراً لتثبيت الفؤاد وبهذا الطريق وحده يستفيد قلب الانسان أيما استفادة إلى أن تدمع العيون وقد روى ابن العربى صاحب «أحكام القرآن» تحت تفسير «الترتيل» ناقلا عن سيدنا حسن بأن الرسول مر يوماً على رجل يقرأ آية آية ويغلب عليه البكاء فقال الرسول للصحابة «أما سمعتم قول الله تعالى «ورتل القرآن ترتيلا» هذا هو الترتيل» وأمر به ﷺ فى قوله «اتلوا القرآن وابكوا» (ابن ماجة) وروى بخصوص صلاته فى الليل بأنه يسمع منه صوت عند تلاوة القرآن كأن قدراً يغلى على النار من شدة البكاء .

١ ـ الحفظ

ومن الشروط اللازمة للترتيل حفظ ما قدر عليه الرجل من القرآن ومن الأسف الشديد أن الناس أهملوا هذا الجانب فبينما كان من المعروف سابقاً الاعتناء بحفظ القرآن من أوله إلى آخره عند العامة والخاصة وعد من الشؤم إذا خلا بيت من حافظ للقرآن إلى أن صارت

الأحوال فى أيامنا هذه إلى أنه لا يعتنى بحفظه إلا أولاد طبقة من الفقراء والمساكين يرتزقون به فى حياتهم ولما كان الحفظ يسهل فى الصغر درج الأولاد على حفظه فى باكورة حياتهم إلا أنهم قلما يصلون إلى درجة التفكر والتدبر فى آياته وإننا لنحمد هذه الجهود المؤمنة التى تبذل لحفظ القرآن ونرجو الله أن يبارك فيها ، وأما ما أقصده من الحفظ فى هذا الموضع فانما هو ذاك الحفظ الذى يجب على كل إنسان الاعتناء به بغية الوفاء بحق الترتيل فيجب على كل واحد منا الاستزادة من حفظ القرآن والسعى فيه حتى يقدر على قراءته كلما قام بين يدى ربه فى ساعات أخيرة من الليل .

ومن الأسف أنه أهمل هذا الجانب كلياً واستغنى عنه العلماء حتى ترى الائمة فى المساجد لا يهتمون بهذا الامر أى اهتمام بل يرددون فى الصلوات نفس السور والآيات التى علقت بأذهانهم منذ صغرهم وهم ممن يرتزقون به فى حياتهم .

ومن المفروض على نقيض ذلك أن يجعل كل شخص ما يحفظه من القرآن بمثابة رأس ماله وعليه أن يسعى طلباً للزيادة فيه حتى إذا قرأ القرآن انتفع بأعلى صور القراءة وهى الترتيل وغذى روحه بالغذاء الكافى من أجود أنواعه .

الحق الثالث

التذكر والتدبر

الحق الثالث للقرآن—بعد الايمان به وقراءته—هو فهمه ولم ينزل القرآن ولم يجب الايمان به إلا ليفهم أولا ، وقد تجوز تلاوته بدون فهم لأولئك الأشخاص الذين لم يلقوا حظاً من العلم وقد تجاوزت بهم السن عن عمر التعلم والفهم فلا أقل «بالنسبة لهم من التلاوة نظراً ولا يحرمون ثوابه إن شاء الله ، وهكذا ذلك الرجل الأمى الذى لم يعرف القراءة ولا الكتابة ولا يستطيع الآن إليهما سبيلا إذا فتح المصحف وقد خشعت جوارحه أمام عظمة كلام الله وعظيم سلطانه ولم يجد غير الامرار بأصابعه على السطور لا يعدم الثواب والبركة(٦) . أما المثقفون من الناس الذين قضوا زهرة حياتهم فى علوم جمة وألسنة أجنبية عديدة إذا قرأوا القرآن بدون فهم أو تدبر فلا يعذرون أبداً ولا ينتفعون بهذه التلاوة وقد يؤخذون عند الله لما وجد لديهم من

---

(٦) هذا هو المراد من الحديث الآتى الا أن الناس استنبطوا منه على الخطأ بأن الرجل المتعلم القادر على تعلم القرآن لو قرأه وهو يصيب مرة ويخطئ مرات ولا يفهم شيئاً من قراءته يستحق عند الله الثواب . والحديث المشار اليه هو عن عائشة قالت : قال رسول الله ﷺ : ”الماهر بالقرآن مع السفره الكرام البررة والذى يقراء القرآن ويتتعتع فيه وهو عليه شاق له أجران (متفق عليه).

احتقار واستهزاء بآيات الله إلا إذا أكبوا من جديد على تعلم القرآن ومعرفة آياته فلا يعدمون الثواب إن شاء الله حتى بمجرد التلاوة خلال زمن التعلم .

وليس فهم القرآن شيئاً بسيطاً يستوى فيه كل من علم وجهل بل إنما له درجات ومنازل يغترف منه كل حسب استعداده وصلاحيته وذكاء قريحته ، وباعتبار ما يبذل فى هذا الأمر من جهد جهيد وسعي مجيد بدون هوادة أو كلل، ولا يشبع منه الانسان ولو صرف فيه جل عمره وجاهد حق جهادة فان القرآن — كما قال النبي عليه الصلاة والسلام — كنز لا تنقضى عجائبه ولا يشبع منه العلماء ولا يخلق عن كثرة الرد ، وليكن أصحاب الفكر والروية منصرفين بعزيمتهم إلى هذا العمل ، وفى ذلك فليتنافس المتنافسون .

قد عبر القرآن عن مضمون الفهم بكلمات شتى من فكر وعقل وفقه وغير ذلك من الكلمات إلا أن أوسع تركيب وأشمله المستعمل لهذا الغرض هو «الذكر والتذكر» وقد عبر القرآن أحياناً عن نفسه بكلمة الذكر أو الذكرى أو التذكرة ، ويدلنا هذا التركيب على المنزل الأول من فهم القرآن وعلى الهدف الحقيقى الذى ينمى إليه بأن تعاليمه لم تكن غريبة بالنسبة للنفوس ولكنها تعبر عن فطرتها وهي في طريق تذكير الانسان دائما لا إلى تفهيمه شيئاً لم يسبق إليه بيان .

إن القرآن يدعو جميع الناس الذين أوتوا حظاً من الادراك المعبر عنهم بكلمة «أولى الألباب» وبـ «قوم يعقلون» إلى التفكير والتدبر فى الأنفس والأكوان تارة وفى آياته ووحيه تارة أخرى كقوله «كذلك يبين الله لكم آياته لعلكم تعقلون» (البقرة) .

«كذلك نفصل الآيات لقوم يتفكرون» (يونس) .

«وانزلنا إليك الذكر لتبين للناس ما نزل اليهم ولعلهم يتفكرون» (النحل) .

«إنا جعلناه قرآناً عربياً لعلكم تعقلون» (يوسف) .

إن العاقل ليدرك—كلما فكر فى الآيات القرآنية والكونية والنفسية بأنها تتوجد وتتمازج بعضها ببعض إلى حد بعيد كما أنها بأجمعها تشير إلى حقائق تشهد عليها فطرة الانسان نفسه وهى شهادة باطنة كانت كامنة مستترة فصارت ظاهرة جلية على سطح الشعور الانسانى فيحصل له العلم بحقيقة النفس—وهو الايمان بعبارة أخرى—مثل ذلك الرجل الذى تدفعه الدوافع فتنتقل أشياء من خزينته العامرة بالذكريات إلى شعوره الظاهر ، وهذا هو «التذكر» بعينه حسب مصطلح القرآن .

وما من شخص إلا وهو مفتقر إلى مثل هذا التذكر سواء كان من العامة أو الخاصة ولذا يسر الله القرآن حتى يسهل على الناس التذكر ونبه على ذلك بقوله : «ولقد يسرنا القرآن للذكر فهل من مدكر» (القمر).

فصارت الحجة قائمة على كل شخص حتى ولو لم يؤت حظاً وافراً من العلم ولم تطرق أسماعه أبداً بحوث فى المنطق والفلسفة ولم يتذوق أساليب اللغة وتراكيبها ولم يقف على حل معضلاتها و دقائقها شريطة أن يكون ذا طبع مستقيم وفطرة صالحة وأن يقدر على فهم عبارات القرآن كلما أمعن فى قراءته .

وهناك جوانب شتى من «تيسير القرآن للذكر» فمنها أولا كون موضوعه ودعوته الأساسية معروفة لدى الفطرة الانسانية فكأنه نداء من باطن الانسان صاحب الطبع السليم عند ما يرتع بنفسه فى رياض القرآن ، وثانياً كون طريق استدلاله واحتجاجه من أسهل الطرق وأيسرها كما جعلت المعضلات من القرآن سهلة ميسرة بضرب أمثال شيقة واضحة ، وثالثاً كون لغته من أسهل اللغات—مع أنه المعجزة الباقية والدرة الفريدة حسب الأدب والمعانى—يأنس به كل من لازمه وحافظ عليه حتى ولو لم يعرف من العلوم إلا قليلا .

ولا بد من معرفة مبادىء اللغة العربية على الأقل بغية التذكر بالقرآن فان مراجعة الترجمة بلغة سوى العربية عند تلاوة القرآن لا تسمن ولا تغنى ، وأرى من الضرورى على كل شخص دراسة اللغة العربية الى حد يجعله على علم بمعانى القرآن الكريم عند تلاوته بدون مراجعة إلى أى ترجمة فى الوقت عينه .

«وليت شعرى بماذا يعتذر بين يدى الله تعالى ذلك الرجل الذى

عرف القراءة والكتابة مبدئياً مع تقصيره فى دراسة شىء من اللغة العربيـة ليكون قادراً على فهم معانى القرآن الكريم وكيف بمن أتقن اللغات الأجنبية وحاز على شهادات عالية وتعلم علوماً صعبة المراس مثل الطب والهندسة . . . . .« وإننى على يقين بأن هؤلاء الناس عندما يمتنعون عن تعلم اللغة العربية ، فانما يتلاعبون بالقرآن نفسه بعملهم هذا ويجعلونه عرضة للاستهزاء والسخرية فما أعظم مسئوليتهم لدى الله وما أشد عقابهم عنده . . .»

وأرى أنه يجب على كل شخص متعلم تحصيل هذا القدر من اللغة العربية الذى يجعله يفهم القرآن ومن قصر فى هذا الواجب فقد انتقص القرآن وجعل نفسه من الظالمين .

«التدبر فى القرآن» هو المنزل الثانى بعد الفهم أى التفكر فى علومه وحكمه والغوص فى بحر عجائبه وفرائده فانما هو هدى للناس ، فاذا كان مناراً للعامة بحيث ينير لهم طريق الحياة ويجلى لهم حقائق الكون ما وجد الخاصة ملجأ إلا إليه ولا ملاذاً به عندما يتيهون فى ظلمات من الشك والظنون خلال رحلاتهم الفلسفية والعلمية .

إن القرآن هو موضع للتدبر والتفكر كما قال تعالى : «كتاب أنزلناه إليك مبارك ليدبروا آياته وليتذكر أولو الألباب» (ص) كما أخذ على من لم يتدبر بقوله : «أفلا يتدبرون القرآن» (النساء) «أفلا يتدبرون القرآن أم على قلوب أقفالها» (محمد) .

وإذا كان سهلا يسيراً من ناحية التذكر أصبح مغلقاً محكم الأقفال من ناحية التدبر فهو بحر لا يعرف عمقه ولا يدرك ساحله ، يغوص فيه الغواصون فيتحيرون من عجائبه ودقائق صنعته ، وكان الصحابة يقضون اوقاتا طويلة الأمد فى تدبر آياته وتفقه معانيه ، فهذا عبدالله بن عمر الذى أوصاه الرسول بختم القرآن مرة فى كل أسبوع ، قضى ثمانية أعوام كاملة وهو يتدبر فى سورة البقرة وحدها وهذه هى حالة أولئك الناس الذين شاهدوا القرآن وهو ينزل وكانوا أفصح العرب على الاطلاق وما كانت تخفى عليهم آية من الآيات ، متى نزلت ولماذا أنزلت ؟ فكيف بمن جاء بعدهم وتطفل على موائدهم . . وهذا هو ابن جرير الطبرى والعلامة الزمخشرى والامام فخر الدين الرازى وأمثالهم من جهابذة العلماء والمفسرين الذين أنجبتهم الأمة المسلمة من وقت لآخر ، يقضون أعمارهم على التفكر فى جانب واحد من جوانب القرآن فلا يفون بحقه ابدا ، وهل هناك من يدعى خلال القرون الأربعة عشرة الماضية بأنه وفى بحقه وقام بأدائه خير قيام ، ولو تمكن من تسويد آلاف من الأوراق تفسيراً وتوضيحاً ؟؟ فكيف بمن هو دونه علماً ومعرفة ؟؟

نقل الغزالى فى «إحياء العلوم» قولا عن عارف يدل على الفرق بين التلاوة الهادية إلى التذكر والأخرى الرامية إلى التدبر فقد قال الرجل بانى آتى على ختم للقرآن الكريم كل جمعة وثانياً فى شهر بأكمله

وثالثاً فى سنة بكاملها ورابعاً لم أصل إلى منتهاه وقد بدأت به منذ ثلاثين سنة .

أما الشروط التى لا بدمنها للتلاوة القاصدة إلى التدبر فهى صعبة أيضاً لا يحققها إلا من وقف نفسه فى سبيل العلم والتعلم فلا يعرف غير القرآن صديقاً ولا أنيساً فعليه أولا أن يعرف قواعد اللغة العربية حتى يتقنها ثم يتذوق الآداب العربية ثم يطلع ثانياً على شعرها ومنثوراتها وخاصة ما نقل عن العصر الجاهلى من كلام الخطباء والشعراء فانه خير معوان على فهم لغة القرآن الكريم كما عليه أن يتأنس بالمصطلحات التى وضعها القرآن نفسه والأساليب التى هو صانعها وخالقها ، ثم معرفة نظم القرآن ثالثاً فانه من العلوم التى استعصى على العلماء معرفته وكم لاقوا من مشقات ومتاعب فى الوصول إلى الرابط الذى يربط الآيات والسور بعضها ببعض ولا شك أن آياته وسوره منتظمة مرتبطة ولذلك وضع الرسول كل آية فى موضعها غير مراع ترتيبها النزولى .

«ومن الظاهر أنه لا يمكن الوفاء بحق التدبر إذا لم يقطع المرء هذه المراحل كلها فمن قطعها استحق أن يمتع نفسه بما يوجد فى القرآن من درر و جواهر و يجول ببصره وخاطره فى أحضان كلام الله الواسع الجوانب المترامى الأطراف جولة لا مشقة بعده ولا عناء . . . .»

وعليه أن يكون على معرفة تامة بذخائر حديث الرسول ﷺ

والصحف السماويه السابقة فاذا حصل له كل هذا وذاك أصبح صالحاً ليتلو القرآن بغية التدبر فيه(٧) وهناك مرحلة أخرى عليه أن يقطعها كذلك وهى أن جميع العلوم العقلية والتجريبية تصل إلى مستوى معلوم فى كل عصر وقرن ولابد للرجل المتدبر فى القرآن أن يعرف هذه العلوم بمقدماتها ومبادئها وطرق استدلالها واستنتاجها وعواقبها ونتائجها ولو بصورة إجمالية .

«لأنه لا يكون فى نصيب الرجل من القرآن إلا حسب ما أعطيه من فطنة وذكاء وما يسعه ذهنه عمقاً واتساعاً ، ولا يستنير به الانسان إلا فى حدود فكره ونظره ولا أشك –فى تكوين أذهان الناس وأفكارهم –من نفوذ العلوم الطبيعية والعقلية التى تسود فى عصورهم» .

ومن الطبيعى أن الناس عادة يغترون بالآراء والأفكار القائمة على أساس من العلوم الطبيعية وغيرها من علم المنطق والفلسفة والبحوث التى تتصل بالألوهية وما بعد الطبيعية وعلم النفس والأخلاق فى كل عصر من العصور ، فمن أراد أن يقف فى وجه الآراء الفاسدة منها ويستأصل شأفتها ما عليه إلا أن يتعمق فى هذه العلوم نفسها إلى أن يصل إلى قرارتها ومنابعها حتى يتمكن من نقضها من أساسها أسوة بالامام ابن تيمية والامام الغزالى رحمهما الله تعالى .

---

(٧) أرجو أن يراجع كل من عنى بتلاوة القرآن بغية التدبر والتفكر كتاب «مبادىء تعلم القرآن تأليف الأستاذ أمين أحسن الاصلاحى (غير مترجم الى اللغة العربية الى الان) ويقرأه بعناية بالغة فانه مما يساعد على التدبر، ويجعله ليستانس بالقرآن أيما استيناس»،

وقد بلغت العلوم الطبيعية والصناعية فى هذا العصر ذروتها حتى تحيرت لها العقول ودانت لسلطانها القلوب وأصبح من المستحيل النقد على الأفكار الزائفة التى صاحبتها فلابد فى مثل هذه الأحوال أن تتولى جماعة من أصحاب العزيمة والنية الصادقة تحقيق الشروط التى سبق بيانها بخصوص التدبر فى القرآن من جهة وتسعى لتحصيل العلوم العصرية من جهة أخرى حتى تتمكن من تمييز العناصر الصالحة من العناصر الفاسدة وتخاطب الناس على قدر عقولهم و مستواهم مستدلة بتجاربها الواسعة إزاء العلوم العصرية لتكون هداية القرآن عامة شاملة لكل ضال ومسترشد ، ويتحقق بذلك تبيين القرآن للناس كما قام به الرسول فى حياته خير قيام ، ولا بد لتحقيق هذا العمل من إقامة جامعات عديدة فى العالم الاسلامى بحيث تهتم بموضوع التدبر فى القرآن كمادة جوهرية تدرس بجانبها جميع العلوم العقلية من الفلسفة والمنطق والألوهية وما بعد الطبيعة وعلم النفس والأخلاق والعلوم العمرانية من الاقتصاد والسياسة والقانون والعلوم الطبيعية من الحساب والكيمياء والطبيعة والفلكيات وجيالوجيا ويجب على كل طالب فى مثل هذه الجامعة دراسة مادة «التدبر فى القرآن» كمادة أساسية مع اختيار مادة أخرى أو أكثر من العلوم المشار إليها حسب صلاحيته وميوله الذاتية حتى يتمكن أخيراً من عرض تعاليم القرآن الكريم عرضاً وافياً شاملا على أساس من تحقيقه فى العلوم التى مارسها خلال الدراسة .

إنه عمل جليل لا يقدر عليه كل رجل ، وإنه لا يطيقه إلا أولئك الأشخاص الذين يجدون من تلقاء أنفسهم ميولا إلى العلم وتجد عندهم أسئلة من حين لآخر لا يمكن الرد عليها إلا بعد طرق كل باب من أبواب العقل ، وإنهم ليجدون أنفسهم مضطرين إلى طلب العلم مثل الجائع إلى الطعام أو العطشان إلى الماء ، تلهج ألسنتهم دائماً بقولهم «رب زدنا علماً» فمن أصاب منهم قيادة رشيدة نال حظاً من العلم والحكمة وهؤلاء هم الذين يقدرون على القيام بهذا العمل الجليل بحذافيره أما غيرهم من طلبة العلم فلا يعدون حظهم أيضاً على قدر جهدهم وصلاحيتهم وإلى هذا دعا الرسول ﷺ بقوله ترغيباً لهم «خيركم من تعلم القرآن وعلمه» (أخرجه البخارى رواية عن عثمان بن عفان) وإليه استنفر القرآن استنفاراً عاماً «فلو لا نفر من كل فرقة منهم طائفة ليفقهوا فى الدين» (التوبة) .

ولم يكن التفقه فى الدين إلا ثمرة من ثمار التدبر فى القرآن وقد دعا الرسول ﷺ لبعض الصحابة كابن عباس بقوله «اللهم فقهه فى الدين» ولما قال : «خياركم فى الجاهلية خياركم فى الاسلام» أعقبه بشرط «إذا فقهوا» .

الحق الرابع

العمل بالقرآن

هذا هو الحق الرابع بعد الايمان به وتلاوته والتدبر فيه وهو المقصود لما سبق من الحقوق فان القرآن ليس سحراً أو طلاسم تدفع بها البلايا ولا هو كتاب بركة فحسب ليتلى احتساباً أو رجاء نقص فى الأوجاع والآلام عند النزع ولا هو كتاب فلسفة يقرأ للبحث والتحقيق ويخرج منه بنكات تحير العقول وتدهش النفوس بل إنما هو «هدى للناس» كما مر بيانه لا تتم رسالته إلا إذا حققه الناس فى حياتهم ، وقد أوضح القرآن بدون خفاء أو غموض وبينه الرسول ﷺ بأنه من لم يعمل بالقرآن ولم يحكم به لا يعتد بايمانه ولو قضى عمره قراءة له والتدبر فيه . يقول الله عز وجل : «ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون» (المائدة) . وزاده الرسول إيضاحاً بقوله : لا يؤمن أحدكم حتى يكون هواه تبعاً لما جئت به» وقوله : «ما آمن بالقرآن من استحل محارمه» (الترمذى) .

قد يعذر ذلك الرجل الذى لا يزال يطلب الحق ويبحث عنه وقد اهتم بالقرآن قراءة وفهماً ليعرف أحق أم باطل ! وأما من آمن بالقرآن

كلاماً منزلا من الله فلا يسعه إلا أن يتلو القرآن وهو منصرف إليه بكامل عزيمته وإرادته ، مستعد لتحقيق أوامره والاجتناب عن نواهيه ولو اضطر إلى التضحية بالرخيص والغالى فى سبيله ولا تنكشف حقائقه —كما أسلفنا عند الكلام حول معانى التلاوة—إلا لمن جعل نفسه فى حيازة القرآن ، فاذا كانت الحالة كهذه أصبح لدى نفس الانسان—بعد مجاهدة طويلة الأمد ورياضة شاقة متعبة—طبع سلس منقاد عبر عنه الرسول ﷺ بقوله «لا يؤمن أحدكم حتى يكون هواه تبعاً لما جئت به» وهذه هى البداية بخصوص الهداية التامة التى فى القرآن ، وكلما زاد الانسان قوة وإحكاماً فى صلته بالقرآن زاد القدر من الهداية (والذين اهتدوا زادهم هدى وآتاهم تقواهم) (سورة محمد) .

فكأن الانسان إذا تبع القرآن وهو ممسك بطرفه أصاب الصراط المستقيم ووجد نفسه فى ازدياد رشداً وهداية وإذا تلاه غير قاصد العمل به فقد أضاع الوقت بدون أى انتفاع وقد جلب عليه اللعنة كما نقل الامام الغزالى عن بعض العارفين بأن كثيراً من قراء القرآن لا يجدون من قراءتهم إلا اللعنة فانهم كلما قرأوا قوله تعالى : «ولعنة الله على الكاذبين» جعلوا أنفسهم عرضة لها لكذبهم ونفاقهم ، وإذا قرأ قوله تعالى : «فان لم تفعلوا فأذنوا بحرب من الله ورسوله» (البقرة) كان ممن يأذنون بحرب من الله ورسوله إذا كان ممن يأكلون الربا ولا يتركونها بحال ، وكذلك جلب عليه الويل عند قراءته «ويل

للطففين» و «ويل لكل همزة لمزة» إذا كان من أصحاب هـذه الصفات القبيحة والجريمة أشد بالنسبة لأولئك المشتغلين بالقرآن الذين قضوا أعمارهم فى البحث والتفتيش عن درره وجواهره ثم لم يعملوا به ولم يرعوا حقوقه فانما عملهم هذا لا يعدو التلعب بالقرآن فلا يرجعون على أنفسهم بقراءة القرآن إلا بالضلال كما قال تعالى : «يضل به كثيراً ويهدى به كثيراً» (البقرة) ولا يعودون على إخوانهم إلا بفتح أبواب من الفتنة والفساد بحيث تصدق عليهم قوله تعالى : «فيتبعون ما تشابه منه ابتغاء الفتنة وابتغاء تأويله» (آل عمران) ولم يكن يتوقف الصحابة رضوان الله عليهم على بعض الآيات والسور آماداً طويلة إلا لحرصهم على العمل بما تيسر لهم من قراءة القرآن مع فهمها وتدبر معانيها حق التدبر والفهم ، ومما يستعجب منه أن الصحابة ما كانوا يعنون بحفظ القرآن عن حفظه فى الصدور فحسب بل إنما يعنون به عن فهم مضمونه والعمل بأحكامه حتى يستوعبوه فهماً وحفظاً وعملا فى آن واحد . وكأنهم عنوا به عن أعماله فى حياتهم بحيث تكون كلماته محفوظة لدى ذاكرتهم وعلومه فى أذهانهم وأحلامه فى سيرهم وخلقهم(٨) وهذا ما عنته السيدة عائشة فى قولها المحكم عند ما سئلت

---

(٨) كما تشهد عليه هذه الرواية التالية التى نقلها السيوطى فى «الاتقان» .
«وقد قال أبو عبدالرحمن السلمى حدثنا الذين كانوا يقرأون القرآن كعثمان بن عفان وعبدالله بن مسعود وغيرهما أنهم اذا كانوا يتعلمون من النبى صلى الله عليه وسلم عشر آيات لم يتجاوزوها حتى يعلموا ما فيها من العلم والعمل، قالوا فتعلمنا القرآن جميعاً ولهذا كانوا يبقون مدة فى حفظ السوره».

عن خلق النبي ﷺ فقالت : «كان خلقه القرآن» أى كان النبي ﷺ نموذجاً مثالياً لتعاليم القرآن .

فالمقصود من حفظ القرآن وعلمه هو العمل به حتى يصير المرء متخلقاً بتعاليم القرآن أجمعه وإلا أصبح ممن يحتج عليهم القرآن كما قال النبي ﷺ «القرآن حجة لك أو عليك» وهناك نقطة لا بد من التنبيه عليها وهى أن للعمل بالقرآن جانبين اثنين ، الجانب الشخصى والجانب الاجتماعى ، وإن المرء مكلف على الفور بالأحكام والأوامر التى تتعلق بحياته الشخصية ولا عذر له إذا أهملها أو فى أدائها فاذا لم يعمل بها أصبح ممن قيل عنهم بلسان القرآن «أكثرها منافقى أمتى قراؤها»(٩) (مسند أحمد) فالطريق الأسلم هو العمل ما أمكن بما تيسر للانسان علمه من آيات القرآن على الفور ، وأما الأحكام التى تتعلق بحياة الانسان الاجتماعية فليس بمكلف باقامتها فى حد ذاته وإنما عليه أن يجد ويجتهد بما استطاع فى ايجاد جو إجتماعى يصلح لاقامة هذه الأوامر ولم يكن جهده هذا إلا «معذرة إلى ربكم»(١٠) يقوم مقام تنفيذ هذه الأوامر الاجتماعية فعلا وأما إذا قصر فى القيام بمثل هذا القدر الزهيد من العمل منصرفاً بنفسه إلى كسب قوته ورعاية ذويه فيخشى عليه من ضياع حصيلته بما قدم من العمل بأوامر القرآن المتعلقة

---

(٩) ليس المراد «بالقراء» المقرئين فقط بل إنما يعنى به عن كل من يشتغل بالقرآن قراءة وتحقيقاً وليس له حظ من العمل به إلا قليلا .

(١٠) الاية «وإذ قالت أمة منهم لم تعظون قوما الله مهلكم أو معذبهم عذاباً شديداً قالوا معذرة إلى ربكم ولعلهم يتقون» (الأعراف) .

بالنواحى الشخصية كما يظهر من قوله عز و جل : (أفتؤمنون ببعض الكتاب وتكفرون ببعض)(١١).

وكما أن القرآن اصطلح للتعبير عن فهمه فى أوسع معانيه على كلمة (التذكر) أورد تركيب (الحكم بما أنزل الله) للتعبير عن العمل بالقرآن كما فى قوله : (إن الحكم إلا لله) (يوسف والانعام) وجعل القرآن حكماً فى قوله : «وكذلك أنزلناه حكما عربياً» (الرعد) وهو من وهو من واجبات الرسول المهمة كما فى قوله : «إنا أنزلنا إليك الكتاب بالحق لتحكم بين الناس بما أراك الله» (النساء) .

ثم صرح بدون غموض وإبهام بقوله : «ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الفاسقون» «ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الظالمون» «ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون» (المائدة) . الحكم هو القضاء لغة ، ولندرك معناه الواسع يجب أن نعرف

---

(١١) يرتجف القلب من هول الوعيد الشديد الذى يعقب هذه الكلمات وهو قوله : «فما جزاء من يفعل ذلك منكم إلا خزى فى الحياة الدنيا ويوم القيامة يردون إلى أشد العذاب» وهذا ما أصاب الأمة المسلمة جزاء إهمالها لآيات الله فما أشد خزيها فى الدنيا كما تراه العيون ويشهدها الواقع ، وأما عذاب الاخرة فلا مفر منه كذلك إلا إذا شملنا الله برعايته الخاصة «إن تعذبهم فانهم عبادك وإن تغفر لهم فانك أنت العزيز الحكيم» (المائده) وكم يصدق علينا قول النبى صلى الله عليه وسلم : «إن الله يرفع بهذا الكتاب أقواماً ويضع به آخرين» (رواه مسلم عن عمر بن الخطاب) .

«وما أحسن ما قاله الشاعر :

«كانوا أعزة لأجل إسلامهم وصرنا أذلة لجعلنا القرآن وراء ظهورنا» (الترجمة).

أن هناك شيئين من أهم الاشياء بالنسبة لكل إنسان : فكره وعمله ، وقد أحاطت كلمة الحكم كليهما بحيث توضح الرابطة الموجودة بينهما «إذا وله المرء بأى فكر أو مبدأ بحيث يصبح رأيا يرتأ به أو قضاء يقضى به — أو بعبارة أخرى — حكماً يحكم به صار عمله تابعاً له تلقائياً .

ولذلك أورد القرآن اصطلاحه الخاص — الحكم بما أنزل الله — معبرا عن العمل به حتى يتضح لكل ذى عينين أنه لا يمكن العمل بالقرآن إلا إذا صارت أفكار الانسان وآراؤه للقرآن منقادة له لا تحيد عنه قيد شعرة فى حال من الأحوال .

وهناك اصطلاح آخر وهو «الاقامة» للتعبير عن العمل بالكتب السماوية كما ورد بخصوص اليهود والنصارى "ولو أنهم أقاموا التوراة والانجيل وما أنزل اليهم من ربهم لأ كلوا من فوقهم ومن تحت أرجلهم" (المائدة) ثم أردفها بقوله : "قل يا أهل الكتاب لستم على شىء حتى تقيموا التوراة والانجيل وما أنزل إليكم من ربكم) .

وإذا كان الحكم بما أنزل الله يتصل عادة بالأفراد وأعمالهم عنى (بما أنزل الله) عن إقامة ذلك النظام الاجتماعى العادل الذى يضمن لأفراده وجميع طبقاته عدلا شاملا ورخاء وسكينة فلا ظلم ولا عدوان ولا بغى ولا طغيان ولا باباً يفتح للضغط السياسى أو الاستغلال الاقصادى ويتم بذلك الأمن والسلام والسكينة والطمأنينة كما بشرت به

الآية السالفة الذكر من سورة المائدة ، وقد أشار الله تعالى إلى إقامة هذا النظام التكافلى فى الآية التالية من سورة الحديد إجمالاً بقوله : (لقد أرسلنا رسلنا بالبينات وأنزلنا معهم الكتاب والميزان ليقوم الناس بالقسط) وذكره تفصيلا وإيضاحاً فى سورة الشورى بحيث يتضح ما يوجد الحكم الالهى وإقامة دينه والايمان بكتابه ، وإيجاد هذا النظام العادل من روابط وثيقة محكمة الوشائج فذكر أولا الأساس الذى يبتنى عليه بقوله (وما اختلفتم فيه من شىء فحكمه إلى الله) ثم أعقبه فى الآيات التالية بذكر الدين أو الشرع الذى ينتج عن الحكم الالهى فقال : (شرع لكم من الدين ما وصى به نوحاً والذى أوحينا إليك وما وصينا به إبراهيم وموسى وعيسى أن أقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه».

خاطب بعدها الرسول بقوله : (فلذلك فادع واستقم كما أمرت ولا تتبع أهواءهم وقل آمنت بما أنزل الله من كتاب وأمرت لأعدل بينكم) واختتم هذا الموضوع بهذه الكلمات الجامعة التالية .

(الله الذى أنزل الكتاب بالحق والميزان وما يدريك لعل الساعة قريب) وقد ذكر (الميزان) فى هذه الآية مقترناً (بالكتاب) كما سلف فى آية من سورة الحديد وقد جاء الأستاذ شبير أحمد عثمانى بكلام جامع عندما فسر هذه الآية فقال : (أنزل الله ميزاناً مادياً توزن فيه الأجسام وميزاناً علمياً يعبر عنه بالعقل السليم وميزاناً خلقياً يغنى به عن

صفة العدل والانصاف وميزاناً آخر من أكبر الموازين وهو ميزان الدين الحق يميز حقوق الخالق منها للمخلوق ويوزن فيه الكلام فلا ينقص ولا يزاد .

إن القرآن جعل أساس التفرق والانتشار (هو البغى بين الناس كما ذكر فى نفس السورة) وما تفرقوا إلا من بعد ما جاءهم العلم بغياً) ولكنه إذ أقيم الدين الحق أى الكتاب والميزان انسدت جميع الطرق المؤدية إلى البغى والطغيان فلا مجال عندئذ للاحبار والرهبان أن يكونوا أرباباً من دون الله ولا لرأس المال أن يكون (دولة بين الأغنياء منكم) ولا لأصحاب السياسة أن يجعلوا الناس عرضة للاستبداد والاستغلال بل يتم محل هذا وذاك التآخى بين العباد وأصبح من واجب أولى الأمر أن يكون الضعيف لديهم قوياً حتى يسلم إليه حقه والقوى ضعيفاً حتى يؤخذ منه ما اغتصب من حقوق الناس وأعراضهم .

هذا هو النظام التكافلى العادل الذى وجب على المؤمنين بكتاب الله إقامته وإيجاده ويكلفون به إجتماعياً ويسئلون عنه يوم لا ينفع مال ولا بنون .

وكان الله تعالى لما ذكر هذا الموضوع من إقامة الدين ، وإنزال الميزان وعقبه بقوله (وما يدريك لعل الساعة قريب) نبه الناس على الاستعجال باقامة دينه وأداء حقوقه فانهم لا يدرون فى أى ساعة من الساعات تقوم عليهم القيامة فيحاسبون كل صغيرة وكبيرة . . . .

وما هو الطرق لاقامة هذا النظام ؟ سؤال يطرق كل ذهن ويختلج في كل صدر . . ولست بصدد إثارة هذا البحث إلا أنني أنتهز الفرصة لأشير إلى نقطة هامة وهي أنه من الخطأ الفاحش أن يقاس ما يبذل في إقامة هذا النظام من جهود وأعمال على أي حركة أخرى من الحركات السياسية أو الاقتصادية أو الاجتماعية التي يشهدها العالم من حين لآخر كما أنه من الضلال والمفسدة أن يستعار لانجاحه خطة عملية سارت عليها حركات أخرى قديماً أو حديثاً ، وكما أنه لا يصلح المرء ولا تحسن حالته الروحية إلا إذا حببت إليه تعاليم القرآن بحيث يؤمن قلبه بصحتها فاذا تم ذلك خشعت لها جوارحه ودانت لعظمتها خواطره وعواطفه فلا يرى مثل القرآن هادياً ومرشداً في حياته كلها ، كذلك الحال بالنسبة للجماعة ، أما إحداث ثورة إسلامية في هيئتها فانه لاتتم هذه الثورة إلا اذا آمنت به الطبقة المثقفة التي هي بمثابة المركز من هذه الجماعة بحيث يصل القرآن إلى شغاف قلوبهم ويتمركز في داخل حشاياهم ، فاذا تم لهذه الفئة الايمان انتشر تلقائياً إلى الطبقات الأخرى التي هي بمثابة الجوارح من الجسد من بقية الأمة ، فتصبح الجماعة عندئذ جماعة راسخة الايمان متنورة بنور من وحي السماء مجتنية ثمار هذا النظام في ظل هدى القرآن .

هذا هو السبيل الوحيد الذي لا سبيل دونه لاقامة الدين بكامله ومن أفسد الآراء بل من أوهنها أن يحلم باقامة دينه بواسطة إنشاء حركة سياسية قائمة على أساس من الاستغلال لعواطف الناس الدينية

لأجل صلتهم بالاسلام كمذهب ورثوه أبا عن جد أو كابرا عن كابر .

هذه جمل تطرق الحديث إليها والمهم أن العمل بالقرآن المعبر عنه (بالحكم بما أنزل الله) تارة وباقامة ما أنزل من الله ، أخرى هو حق من أعظم الحقوق وجب أداؤه على كل إنسان شخصياً وعلى الأمة المسلمة إجتماعياً .

الحق الخامس

التبليغ والتبيين

الحق الأخير الذى وجب على كل مسلم أداؤه حسب صلاحيته واستعداده—بعد كل من حق الايمان بالقرآن وقراءته وفهمه والعمل به—هو الدعوة به إلى الآخرين .

وقد اصطلح القرآن للتعبير عن الدعوة به على كلمة (التبليغ) ولهذه الكلمة جوانب ودرجات فمن بينها (التعليم) ومن إحدى مراتبها العليا (التبيين) وبصدد ذكر الغاية من القرآن قال الله تعالى : (هذا بلاغ للناس ولينذروا به) (الأنعام) كما أشاد به كواجب أولى من واجبات الرسول ﷺ فقال : (وأوحى إلى هذا القرآن لأنذركم به ومن بلغ) (الأنعام) ثم نوه على أن واجب الرسول الأساسى هو إبلاغه إلى الناس بدون نقص وإهمال فاذا قصر فى ذلك لم يوف الرسالة حقها بقوله : (يا أيها الرسول بلغ ما أنزل إليك من ربك وإن لم تفعل فما بلغت رسالته) (المائدة) .

وحقاً قد أدى الرسول الأمانة ولاقى فى أدائه أنواعاً من المصائب والآلام منذ بعثته إلى أن التحق بالرفيق الأعلى ، وحقاً إنه

قام بنشاط واسع فى مختلف صوره وأشكاله طيلة هذه المدة إلا أنه من الواضح – لو نظرنا بدقة تامة – أن جهوده كلها كانت تدور حول نقطة واحدة فلم يكن ليحيد عن قراءة القرآن وتبليغه إلى الناس وتبيينه للحاضر والبادى قيد شعرة طوال حياته بعد البعثة وقد ذكر أربع مرات فى القرآن الطريق الذى اتخذه الدعوة وإصلاح المجتمع بقوله ، (يتلو عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة) (البقرة ، آل عمران ، الجمعة) وتهدف هذه الآيات إلى نفس الطريق الذى سلف بيانه بصدد الكلام حول إحداث ثورة إسلامية . أدى الرسول ﷺ هذا الحق وبلغ الأمانة إلى الصحابة بجهده المتواصل وعمله الجريئ المتلاحق خلال ثلاث وعشرين سنة وحرض أصحابه(١٢) على تبليغه إلى الناس بقوله (بلغوا عنى ولو آية) وفوض هذه الامانة – بعد أن كمل الدين وتمت النعمة – إلى هذه الأمة حتى تتولى أداءها فيما بعد فى خطبته الأخيرة عند حجة الوداع بعد ما استشهد الصحابة على أنه بلغ الدين فقال (وليبلغ الشاهد الغائب) وصارت بذلك الأمة المسلمة مسؤلة عن تبليغه إلى الآخرين حتى يوم القيامة ، ولما كانت الأمة لا تكون إلا من الناس وجب على كل شخص اداء هذه الأمانة حسب صلاحيته ، فعلى العلماء مثلا أن يودوه حسب استعدادهم ومقدرتهم ،

---

(١٢) وهناك أنموذج رائع من الصحابة فى شخصية مصعب بن عمير الذى قام بالدعوة فى ربوع يثرب فصارت هذه الديار مهجراً للمسلمين وكفاها فخراً بذلك ونرجو أن يحذو كل مسلم حذو هذا الصحابى الجليل ليقوم بأداء الأمانة خير قيام .

وعلى العامة فى حدود علمهم ومعرفتهم .

(ولا شك أن ما من امرىء إلا وهو مسئول عن أداء هذا الحق أخذاً من قوله ﷺ : (بلغوا عنى ولو آية) فمن تعلم قراءة القرآن فعليه أن يعلم الآخرين القراءة ومن حفظ بعض آياته وسوره فليحفظ قدرها أصحابه ، ومن عرف ترجمته فليعرف الناس ترجمته بلغتهم ، ومن فهم معانية سعى فى تفهيمها من يجهلها من أقرانه حتى لو عرف آية واحدة سعى ليله وجد نهاره ليطلع عليها الآخرون . . .

هذا هو «التبليغ» الذى لا تبرأ الأمة المسلمة من أداء حقه اجتماعياً إلا إذا بلغته بمتنه ومعانيه إلى مشارق الأرض ومغاربها . .)

إن تحقيق هذا الشىء لا يعدو حلماً من الأحلام فى وقتنا الحاضر لأن الأمة التى أخذت على عاتقها أداء هذا الواجب العظيم قد بلغت من الجهل والاعراض عن القرآن إلى أن صارت الآن فى حاجة إلى أن يبلغ إليها القرآن من جديد ، فمن المهم أن يجب إلى هذه الامة نفسها تعلم القران وتعليمه بحيث يصبح كل امرىء إما متعلماً أو معلماً للقران ، وفقنا الله لتحقيقة ، آمين .

(والتعليم) هو أحد فروع التبليغ كما مر بيانه كما أن (التبيين) من مراتبه العليا فليس من الواجب تبليغه إلى الآخرين فحسب بل لا بد من تبيينه لهم مع إيضاح لما تتضمنه الآيات والسور من المعانى والأدلة على مستوى أذهانهم وقواهم العقلية كما أشير إليه عند الكلام

حول التدبر فى القرآن وقد عبر الله تعالى (البيان) عن القرآن فى قوله : (هذا بيان للناس وهدى وموعظة للمتقين) (آل عمران) كما عبر عنه بكلمة (المبين) تارة وعن آياته بصفة (البينات) وجعل من واجب الأنبياء تبليغ آياته وتبيينها للناس فقد خاطب الرسول بقوله : (وأنزلنا إليك الذكر لتبين للناس ما نزل إليهم) (النحل) وذكر عن أهل الكتاب وعن عهدهم الذى عاهدوه فقال : (وإذ أخذ الله ميثاق الذين أوتوا الكتاب لتبيننه للناس) (آل عمران) وقد استحقوا اللعنة لما أهملوا هذا الحق و كتموه أشد الكتمان كما فى قوله : (إن الذين يكتمون ما أنزلنا من البينات والهدى من بعد مابيناه للناس فى الكتاب أولئك يلعنهم الله ويلعنهم اللاعنون) (البقرة) .

ومن أدنى مراتب (التبيين) أن يوضح لكل قوم معانى القرآن الكريم —ولو إجمالا— بلغته التى يتفاهم بها أفراده لأنه لا يتم التبيين لقوم من الأقوام إلا بلسانه كما قال عزوجل : (وما أرسلنا من رسول إلا بلسان قومه ليبين لهم) (إبراهيم) .

ومن الضرورى لتحقيق هذا الأمر طبع القرآن الكريم فى كل قطر من أقطار العالم مع ترجمته وتفسيره باللغة المحلية ولو مختصراً ونشره وتوزيعه ما أمكن ذلك .

قارئى الكريم ! هذه هى الحقوق التى يجب على كل مسلم أداؤها والعناية بها ولنحمد الله على أننا نحتفظ بالقرآن كما أنزل على الرسول ﷺ

بدون تغيير أو تبديل وإننا لنعتز به أيما اعتزاز وعلينا مسؤلية كبيرة ازاء ذلك فان بنى إسرائيل حملوا كتاب الله قبلنا ولما فشلوا فى أداء المهمة وحمل المسؤلية جاء الله بأمة غيرها تتولى حمل كتابه العزيز ، وقد مثل تعالى الذين حملوا كتابه ثم لم يوفوا حقه بقوله فى سورة الجمعة : (مثل الذين حملوا التوراة ثم لم يحملوها كمثل الحمار يحمل أسفاراً) ثم عد عملهم هذا تكذيباً لآياته فقال : (بئس مثل القوم الذين كذبوا بآيات الله) أردفه بذكر سنة الله التى لن تجد لها تبديلا (والله لا يهدى القوم الظالمين) وإنى أتعوذ بالله من أن أكون أنا أوتكونوا أنتم من هؤلاء المذكورين وأدعوه أن يجعلنا ممن يحملون القرآن فيوفونه حقه . وعندما يقول الله عز و جل فى سورة الفرقان : «وقال الرسول يارب إن قومى اتخذوا هذه القرآن مهجوراً» أراد بهم الكفار أصلا ، إلا أن الآية تشمل أولئك الذين آمنوا بالقرآن ثم لم يعتنوا به بتاتاً كما ذكر الشيخ شبير أحمد العثمانى فى تفسيره تحت هذه الآية «أريد بهذه الاية الكفار إلا أن جميع الأعمال من عدم التصديق بالقرآن والتدبر فى آياته والعمل بمقتضياته والاهمال فى تلاوته وتصحيح قراءته والانصراف عنه مع الاشتغال بأمور أخرى تافهة مما يؤدى إلى هجر القرآن تدريجياً»(١٣) .

---

(١٣) مما يدل على عظم مكانة الاستاذ شبير أحمد العثمانى وقربه من الرسول صلى الله عليه وسلم أن كلماته هذه تضارع حديثاً واحداً من أحاديث الرسول صلى الله عليه وسلم مروياً عن عبيدة المليكى . قال الرسول صلى الله عليه وسلم يا أهل القرآن لا تتوسدوا القرآن واتلوه حق تلاوته من آناء الليل والنهار وأفشوه وتغنوه وتدبروا فيه لعلكم تفلحون (شعب الايمان للبيهقى) .

وأتعوذ بالله مرة أخرى من أن نكون من أمثال أولئك المذكورين آنفاً وأختم خطابى هذا بالدعاء الذى أثر عن النبى ﷺ ويدعى به عادة عند ختم القرآن إلا أننى أرى أن يستكثر منه ليوفقنا الله تعالى لأداء حقوقه .

«اللهم أرحمنا بالقرآن العظيم واجعله لنا إماماً ونوراً وهدى ورحمة ، اللهم ذكرنا منه ما نسينا وعلمنا منه ما جهلنا وارزقنا تلاوته آناء الليل وأطراف النهار واجعله لنا حجة يارب العالمين . آمين».

ندرج فيما يلى دعاء آخر مروياً عن عبدالله بن مسعود — على سبيل اليمن والبركة — لقنه ﷺ الصحابة ليدعوا به عند نزول الالام والمصائب والأحزان وهو شرح واف (للعبودية الكاملة) وتفسير شامل لقوله «شفاء لما فى الصدور» وإيضاح تام لما يكنه الرسول من قدر وإجلال تجاه القرآن الكريم . ورد هذا الدعاء فى كل من مسند أحمد ورزين باختلاف يسير فى كلماته ونعرضه بعد جمعه فى مكان واحد .

«اللهم إنى عبدك وابن عبدك وابن أمتك فى قبضتك ، ناصيتى بيدك ، ماض فى حكمك ، عدل فى قضاؤك ، أسألك سميت به نفسك أو أنزلته فى كتابك أو استأثرت به فى مكنون الغيب عندك ، أن تجعل القرآن ربيع قلبى ونور صدرى وجلاء حزنى وذهاب همى وغمى ، آمين .

* * *

نحن نأسف لما وقع من الأخطاء الطباعية فى هذا الكتاب والمسبِّب لذلك عجلة الطباعة وضيق الفرصة ـــــ وللعجلة آثار عجيبة .

وهذا جدول تصويب أخطاء كان التنبيه عليها عندنا أهم . وهناك أخطاء أعرضنا عن الاشارة إليها احالةً إلى فهم القراء الكرام حيث يسهل التنبه لها بأول وهلة وأدنى تدبر . فنرجو القارىء الكريم ان يبادر إلى تصحيحه وأن يسامحنا .

وسنبذل المجهود فى تصحيحه التام عند الطبع ثانياً ونعود النظر فى ذلك إن شاء الله تعالى والعود أحمد .

جدول الخطا والصواب

الصفحة	السطر	الخطا	الصواب
٨	٧	الرسول صلى الله عليه وسلم	سيدنا ابوبكر الصديق
٨ (حاشية)	٢	اشتّراك	اشراك
١٠	١١	ريّك	ربّك
١٠	١٢	واتل ما	اتل ما
١٠	١٦	حن	حق
١٢	٦	احدى عشرة من السور	احدى عشرة وثلث عشرة من السور
١٢ (حاشية)	٢	نلاوه	تلاوة
١٣	١٠	لحسن القرآن	لحسن الصوت
١٤	٧	يرجو	يرجو

١٧	١٣	حياتهم فى علوم جمة	حياتهم فى تحصيل علوم جمة
١٨	١١	المتنافون	المتنافسون
١٩	٨	جعلناه	أنزلناه
٢٠	١١	شيقة	رشيقة
٢١	١٤	ولا ملاذاً به	ولا ملاذاً إلّا به
٢٢	١٥	فكيف	فكيف
٢٤ (حاشية)	٢	تعلّم القرآن	تدبّر القرآن
٢٤ (حاشية)	٣	عل	على
٢٦	٢	تلقاه	تلقاء
٢٦	١٢	ليفقهوا	ليتفقّهوا
٢٦	١٤	ےعا	دعا
٢٩ (حاشية)	٢	السلفى	السلمى
٣٠ (حاشية)	٣	مهلكم	مهلكهم
٣١	٦	ومومن	×
٣١	٧	ومومن	وهو من
٣١ (حاشية)	٢	من يقعل	من يفعل
٣٦	٣	باقامة ما أنزل من الله اخرى	(باقامة ما أنزل من الله) اخرى
٣٩	٦	معانية	معانيه
٤٢	١٥	أسألك سميت به	أسألك بكل اسم هو لك سميت به